خالد حوراني *

«مصيدة» المكان - دراسة نقدية لحقل الفنون التشكيلية في إسرائيل

المؤلف: محمد الجبالي

إصدار: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار

تاريخ النشر: أيار ٢٠٢٢

أتيحت لي فرصة الاطلاع على مخطوطة كتاب «مصيدة المكان» - دراسة نقدية لحقل الفنون التشكيلية في إسرائيل، لمؤلفه محمد جبالي، وهو كتاب شيق ومهم جداً، يأخذ بيد القارئ - سواء القارئ المتخصص بالفنون أو الشأن الإسرائيلي والقارئ بشكل عام - يأخذه في رحلة من المعلومات والتحليل المعمق والموضوعي عبر العديد من المعارض والأحداث الفنية المفصلية والمهمة في التأريخ لهذا الموضوع الحساس جداً والدال بعمق على السياقات السياسية والاجتماعية لعمليات الإنتاج الفني في إسرائيل.

عبر حوارات ومقابلات وتنظير ونصوص مرافقة للمعارض المهمة والأعمال الفنية الدالة وصور وجدل وتعقيب، يستعرض هذا الكتاب تاريخ الفن في إسرائيل وإشكالياته المتعلقة بالمكان والزمان وصيرورته بالتحليل وإثارة الأسئلة.

هو لا يعتمد أسلوب التأريخ التسلسلي لمسار الفن هناك بطريقة تقليدية من حيث الزمان، لكنه يعود إلى التاريخ بكل رشاقة كلما اقتضى الأمر، وهو بذلك يقدم جردة حساب لتاريخ كامل من الفن الإسرائيلي ومقدماته دون أن يغفل السياق الزمني الذي تم فيه هذا الإنتاج أو ذاك.

يبدأ بنا من معرض «فقر المادة» عام ١٩٨٦ بما هو معرض تأسيسي للمدرسة المركزية في الفن الإسرائيلي، ثم يذهب للأمام ويعود للوراء ويقفز إلى اللحظة المعاصرة ثم يعود، وهكذا، دون أن يغفل تقديم المعلومات الضرورية

* فنان تشكيلي.

الكتاب لا يؤرخ للحقل الفني في إسرائيل من وجهة نظر متضرر كما هو حال الفلسطيني والعربي، ولا يعتمد لغة الأنا والآخر. إنه دراسة ملفتة تدين المستعمر أيًا كان وإشكالياته الفنية المعبر عنها بقصد أو بدون قصد لإدانة الذات المبدعة على تخوم الآخرين.

للفهم والتحليل الموضوعي لهذه الممارسات.

يعتمد الكتاب إذًا منهج التحليل دون محاكمات مسبقة، والدراسة الموضوعية لهذه الممارسات الفنية التي رافقت تأسيس هذه الدولة وقيامها وصيرورتها من الناحية السياسية. وكأن الفن في هذه الدراسة يقدم من ناحية تاريخ هذا الكيان وصراعاته الداخلية وعلاقته مع المكان والجوار من ناحية ثانية. بالنسبة لي كفلسطيني وكفنان على الأقل أزعم أنني فهمت إسرائيل أكثر من خلال هذه الدراسة. واعتقد أن هذه النافذة - نافذة دراسة المجتمع؛ أي مجتمع، وتحولاته وإشكالياته من خلال الفن والممارسات المرافقة - هي أعمق وسيلة لفهم السياسة والتاريخ المؤسس لها.

من فمك أدينك..

الكتاب لا يؤرخ للحقل الفني في إسرائيل من وجهة نظر متضرر كما هو حال الفلسطيني والعربي، ولا يعتمد لغة الأنا والآخر. إنه دراسة ملفتة تدين المستعمر أيًا كان وإشكالياته الفنية المعبر عنها بقصد أو بدون قصد لإدانة الذات المبدعة على تخوم الآخرين. سيكون هذا الكتاب مفيدًا جدًا باللغة العبرية واللغة العربية بكل تأكيد وبكل اللغات الممكنة للقارئ في أي مكان، لفهم هذا التاريخ والإحاطة به. تاريخ الإنتاج الفني المعقد في اللحظة الاستعمارية بالذات.

لو كنت سأكتب مقدمة تحتفي به لقدمت توصية بأن يُدرّس الكتاب لطلاب الفنون والدارسين في الحقل الثقافي والمعرفي في فلسطين والعالم العربي أيضًا، لما فيه من نماذج معرفية وتحليل فلسفي لمعنى الفن ودوره في صياغة الذات الفاعلة في التاريخ ورسم الحدود الفاصلة بين الفن كفعل جمال وخير وكونه أداة أحيانًا أداة للدفع عن الغلط وتبريره والتنظير له. الفن وهو يرصد صراعات الإنسان والهويات ويعبر عن المعنى العميق للوجود.

يستعرض الكتاب كما قلنا جملة من المعارض والأعمال الفنية المهمة والدالة على هذه الإشكاليات، يبدأ في الثمانينات في معرض فقر المادة ١٩٨٦ ويتوج جدالًا مستمرًا لم ينته إلى الآن. جدال بين أكثر من مدرسة فنية وتأسيس المدرسة التل أبيبيه نسبة إلى تل أبيب (ينحت الكاتب في كثير من المواضع مصطلحات جديدة، دالة وشيقة أرى من المفيد اعتمادها) بالدلالة والأسماء يأخذنا الكتاب إلى هذا المعرض كمفصل في تاريخ الفن في إسرائيل. يبدأ به الكتاب كمعرض وحدث مركزي لا تزال مفاعيله حاضرة إلى الآن، ويعود بنا إلى لحظة تأسيس المدارس المختلفة هناك والصراعات التي أقصت أو أدنت هذا الأسلوب الفني أو ذاك. ثم يخطو للأمام وهكذا حتى نستطيع أن نرسم صورة وخارطة للأعمال الفنية المفصلية في مدونة الفن في إسرائيل عبر استعراض مقاطع من الكتالوجات المرافقة للمعارض والنقد الفني والجدال حولها، وكذا يشرح لنا الكتاب بالكلمات والصور الكثير من الأعمال الفنية والأفلام الدالة على هذه التحولات.

طبعًا في تاريخ الفن كله هناك معارض وأعمال فنية مهمة رسمت ملامح مرحلة معينة ولا يزال صدى مفاعيلها مدويًا. يعزز الكتاب أهمية معرض وأسلوب «فقر المادة» بالدليل بما يمثله من محاولة التأسيس لما يمكن اعتباره طابع الفن الإسرائيلي الخالص، هو يستخدم كلمة حقيقي هنا للدلالة على الفن الذي مثله المعرض وأنتجه على نحو خاص فنانون ولدوا في إسرائيل ولم يهاجروا إليها. معرض مفصلي بكل تأكيد من حيث المفهوم والدلالة. يقطع من حيث المكان والجغرافيا مع المدرسة الأوروبية بالفن التي وسمت جيل السابقين. معرض تبلور في المكان الجديد، إسرائيل.

جيل متنوع من الفنانين من مناطق وأعمار مختلفة يجمعهم أنهم ولدوا في إسرائيل في معرض واحد يحاول تمييز ما هو فن إسرائيلي خالص. بالمكان والزمان الخاص بهم. معرض يمثل التيار المركزي المهيمن

في الجدال والتنظير لهذه الممارسة الفنية أو تلك، لهذا الاختيار لتمثيل إسرائيل في هذا البينالي الدولي أو ذاك، في الدفاع عن هذه المدرسة أو تلك في النقد والنقد المضاد يعمل الكتاب على الحفر عن خلفيات هذه الجدالات وإرهاصاتها ودورها في صياغة ما بات يقدم كفن إسرائيلي والمعاني السياسية المراد الأخذ بها وتقديمها كمرافعة وجودية عن هذه الخيارات.

وما يعنيه من إقصاء آخرين. وما يعنيه من تمثيل أو محاولة تجاوز للحالة الاستعمارية المؤسسات والشخصيات المركزية، الفنانون واللاعبون في هذا المشهد يحاولون تفكيك المعضلة والتناقض بين الفن والممارسة الاستعمارية. بين بنية المجتمع والفنانين المنتجين والواقع.

في الجدال والتنظير لهذه الممارسة الفنية أو تلك، لهذا الاختيار لتمثيل إسرائيل في هذا البينالي الدولي أو ذاك، في الدفاع عن هذه المدرسة أو تلك في النقد والنقد المضاد يعمل الكتاب على الحفر عن خلفيات هذه الجدالات وإرهاصاتها ودورها في صياغة ما بات يقدم كفن إسرائيلي والمعاني السياسية المراد الأخذ بها وتقديمها كمرافعة وجودية عن هذه الخيارات.

ملفت جدًا هذا الجدال الداخلي ودلالاته التي تتجاوز حدود الانتصار لهذا الموقف أو ذاك من قبل ناقد أو مؤرخ فن وصانع معارض أو صحافي بين ما هو محلي وما هو عالمي بين ما هو إنساني وتقدمي وما هو رجعي وإشكالي.. على هذه التخوم يرسم الكتاب صورة بانوراميه للحراك الفني في إسرائيل وهو يستعرض على الدوام أهم تلك الممارسات التي طبعت هذه المرحلة أو تلك ومثلت إسرائيل رسميًا أو حضرت من قبل فنانين إسرائيليين في المحافل الفنية الدولية المهمة.

يستعرض الكتاب خيارات المتاحف ومراكز الفن ومؤسساته، والمدارس والكليات المختلفة وعلى رأسها بيتسالئيل، ودور هذه المؤسسات والأفراد في رسم معالم الفن في إسرائيل وإشكالياته، خيارات الفنانين والجماعات الفنية ومقارباتهم في الاتصال مع الموضوع الفلسطيني والأرض، وسؤال المسألة اليهودية والحركة الصهيونية عن الدولة والسياسة والشرط الإنساني لإنتاج الفن، في مشهد فني غني ومعقد ومعبر إلى حد كبير عن مآلات السياسة والتاريخ في علاقة جدلية مع الفن العام وتاريخه، ليس في إسرائيل فقط كحالة دراسة وإنما في العالم بطريقة ما.

أرى أن التجارب والأعمال الفنية اختيرت مهمة جدًا؛ أعمال يائيل بارتناه وسلسلة أفلامها الدالة، وكذا مجموعة سالا مانكا وغيرها، والمؤسسات الفنية الفاعلة كلها ساهمت في صياغة هذا المشهد وقُدمت في الكتاب دون إغفال دور كل منها وإشكاليات حضورها ومحاولتها توصيل الأفكار والتأويل والتورية خلف جماليات وذكاء إنساني ومعضلة وجود.

اسم الكتاب مناسب جدًا وكذا معجم الأسماء والمراجع والفهارس. كل شيء موثق بطريقة علمية بدون شك، والكتاب بالمناسبة معد بطريقة ولغة شيقة جدًا، هذا كلّه يجعل منه كتابًا علميًا وموضوعيًا قبل أي شيء ويحفظ لصاحبه ولمركز «مدار» هذا الجهد المفيد.

رام الله -فلسطين
٢٤ كانون الثاني ٢٠٢١